

تفسير تدبر القرآن

(تفسير سورة النساء)

- الشيخ أمين أحسن الإصلاحي¹

ترجمة من الأردوية: د. أورك زيب الأعظمي²

﴿29﴾

تفسير سورة النساء

20. تفسير الآيات (44-57)

انتهى باب إصلاح المجتمع إلى الآية 43 كما أشرنا إليه. والآن يأتي ذكر ردّ الفعل الذي جاء من قبل معارضي هذه الإصلاحات كما يبشّر المسلمون بملك كبير ينتجه كمال المجتمع وتماحه. ومن تناوله أولاً من المعارضين اليهود لأنهم بصفته من أهل الكتاب ينبغي لهم أن يؤيدوا هذه الإصلاحات ولكن من سوء الحظ أنهم أول معارضيها وأشدّهم فذكرت شرور معارضتهم وخوطبوا مباشرة وهُدِّدوا بأنهم إذا لم يؤمنوا بهذا الكتاب فحان لهم أن يلعن عليهم كمثل أصحاب السبت وأن تطمس وجوههم.

ثم نهبوا على عقائدهم وشعائهم الشركية وعلى زعمهم أنهم اعتبروا أنفسهم أمة مصطفاة فيزعمون أنهم ولد أولياء الله ولو ساءت عقائدهم وشاغت شعائهم فيدخلون الجنة بدون أي حساب ولا نقاش فقال إنّ زعمهم الباطل هذا الذي هو اقترأ على الله قد ألهاهم عن مسؤوليات الإيمان والعمل عليه فأخرجوا أنفسهم عن نطاق العبودية إلى نطاق الألوهية والمعبودية.

¹ كاتب ومفسر هندي له مؤلفات عديدة ترجم البعض منها إلى العربية والإنجليزية

² مدير تحرير المجلة وأستاذ مشارك، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المالية الإسلامية، نيودلهي، الهند

ثم أبدى عن عجه أنهم يدعون التفضل والقدسية في جانب وفي جانب آخر بلغوا من الدناءة أسفلها فيؤمنون بالجيت والطاغوت وهم أهل الكتاب وعوا في بغض المسلمين إلى حدّ يعتبرون الكفار والمشركين أهدى من المسلمين أعدائهم فقال إذا أصبحوا عمياناً لحسدهم فليوتوا عمياناً فقد فصل الرب تعالى أنه يجعل بني إسماعيل حاملي الكتاب والحكمة ووارثي الخلافة الكبرى.

ثم شجع من قبل هذه الدعوة من بني إسماعيل وأما من أصرّ على معارضتها فقد هددهم بالعذاب في الآخرة. الآن اتلوا الآيات التالية في ضوء هذا المدخل:

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿١١﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿١٢﴾ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِالسِّتِهِمْ وَظَعْنًا فِي الَّذِينَ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٣﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُونَ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿١٤﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿١٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿١٦﴾ أَنْظُرْ كَيْفَ يُفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴿١٨﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن نَّجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿١٩﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٢٠﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ ءَاتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٢١﴾ فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِءَايَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ

نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٦٧﴾

21- تحقيق الكلمات وتوضيح الآيات

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُشْكِرُونَ الصَّلَاةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٤﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَابِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿١٥﴾

والخطاب بـ"أَلَمْ تَرَ"، كما أسلفنا في غير هذا الموضع، يأتي للجمع وللتعجب والأسف، وهنا خطب به المسلمون، والمراد من "أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ" هم اليهود. وقد أوضحنا في غير هذا المكان أنَّ العلاقة بين الصحف السماوية الأخرى والقرآن الكريم علاقة الجزء بالكل. إنَّ القرآن كتاب من الله تام وأما الصحف السماوية الأخرى فهي أجزاءها ولذا فنَحْمِلُ أجزاء هذا الكتاب التام قد عقد الأمل معهم أشدَّ أن يقبلونه إذا جاءهم ويؤمنوا به ولكنهم على الرغم من ذلك يفضلون الضلالة على الهدى ويحاولون جهدهم، بدل قبوله، أن يغفل المسلمون هذا الصراط المستقيم الذي أعطوه. وقد أشير في الآية 27 السابقة أنَّ الله تعالى يهدي بهذا الكتاب إلى طرق الأنبياء والرسل السالفين ولكن الذين يعبدون هوى النفس يحاولون أن يضلُّوها ولا يسلكوها. وفيما يلي تفصيل تلك الإشارة.

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَابِكُمْ الآية هذا كلام يسلي به المسلمون وهو يعني: أنَّ الله ليس بغافل عن أعدائكم تلك وهو عليم بهم وبكيدهم وشرهم فهو يضلُّ كل شرِّ لهم، ومن ينصره الله ويعصمه فالله حسبه فتقدَّموا على ما تسيرون عليه واتكلموا على نصره.

مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعَيْنَا لَيَّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَظَعْنًا فِي الَّذِينَ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَأَنْظُرْنَا

لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥﴾

قد شرحنا كافة ألفاظ هذه الآية في تفسير سورة البقرة. إنها إشارة موجزة إلى تلك الشرور التي كانت اليهود يرتكبونها لكي يذلّوا الرسول أمام الناس ويحقروا الإسلام ويجعلوه إلى أسفل.

وكلمات "سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا" و"أَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ" و"رَاعَيْنَا"، كما أوضحناها في تفسير سورة البقرة، كانت كلمات يتداولها العرب في جلساتهم وكانت تدلّ على تقدير المتكلم ورغبة السامع وقبوله كما نقول بلغتنا: "بجا إرشاد هـ" (سبحان الله، صدقت) و"سر تسليم خم هـ" (سمعاً وطاعة) و"سنئ هـ"، كما خوب بات فرمائي" (وأذنوا فقد أحسن) و"نادر نكته هـ" (نكتة بديعة) "مكرّر إرشاد هو" (مرّة أخرى) وغيرها من الكلمات التي تداولها العرب لهذه المعاني والدلالات. ولو أنّ هذه الكلمات للإعراب عن التقدير والتشجيع ولكن إذا أرادت فئة أن تسيء إلى المتكلم وتلوي بلسانها فيمكن أن تتحوّل هذه الكلمات التشجيعية إلى الكلمات المضحكة الساخرة فلو أنّ هذه الكلمات تضرّ بالمتكلم أم لا ولكنها تعين الأشرار على الإعراب عما في ضميرهم وباطنهم. والآن تفهّموا هذه الكلمات بشيء من التفصيل.

فكلمة "سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا" تعني لغة أنّا أذنا له وأطعناه، ويلفظها العرب حين يريدون أن يعربوا عن قبولهم وطاعتهم وتأهبهم لحكم كبيرهم وسيدهم وملكهم، ونجد في العربية مرادفاً لها وهو "طاعة" والتي أوردتها القرآن أيضاً. فلما حضر أشرار اليهود جلسات الرسول قالوا "سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا" مرة بعد أخرى لإظهار برّهم وسعادتهم ولكنهم كانوا يلوون بها ألسنتهم فيجعلون "سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا" "سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا". وبما أنّ حروف كلتا الكلمتين قريبة المخرج والإيقاع فنجحوا في هذا التحريف وصاغوا كلام الطاعة في كلام العصيان ولم يقدر المخاطبون على تنبيههم على هذا الشرّ.

و"أَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ" تعني اسمع ما لم يسمع من قبل، إنّ هذه الجملة من حسنها أنّ

السامع حينما يسمعها يلفت إلى من بجواره فيلفته إليها بأنها كلام بديع لم تأذن له أذانا. فالبديحي أنّ هذا الكلام لا يقدر المتكلم فقط بل يرغب الآخرين على تقديره ولكنه إذا لفظ أحد هذه لكلمة وأراد بها الاستهزاء بالمتكلم فتعني: اسمع لهذا الخطيب البديع الذي يأتي بخرافاته وأساطيره، وهكذا فقد حوّل سياق الجملة هذه الفقرة العالية إلى فقرة دنيّة لا يعبأ بها. ولكن لا يمكن التنبيه عليها لأنّ قائلها بإمكانه أن يؤوّلها بأنّه أراد بها التقدير لا الاستهزاء، وبما أنّ الهزء في هذه الفقرة ينشأ من "عَيَّرَ مُسَمِّعٌ" فدحضها القرآن وأرشد إلى لفظ "أَسَمَعَ" بإسقاط "عَيَّرَ مُسَمِّعٌ".

و"رَاعِنًا" تعني: اعتن بنا وتوجّه نحونا. ومن حسن جوانبها أنّ المخاطب إذا لم يسمع لقول حكيم فيطلب من المتكلم أن يكرّره ليثبت في نفسه فهي تدل على رغبة السامع واشتياقه ولكن أشرار اليهود كانوا يلوون بها ألسنتهم فيحوّلون هذه الفقرة الحسنة إلى الفقرة الوضيعة ويسخرون بواسطتها وذلك إذا أملنا قليلاً في كسر العين في "رَاعِنًا" فجعلنا "رَاعِنًا" "رَاعِيْنَا" (أي من يرمى لنا الإبل والغنم) فقد نزع القرآن هذه الفقرة من جلسات المسلمين وبدّلها بـ"أَنْظَرْنَا" أي آتينا فرصة للاستماع والتفهّم فهذه الفقرة قامت مقام "رَاعِنًا" ولا يغتم بها القائل تشويه صورة ومعنى الجملة.¹

وفي النهاية قال إنّما يقوم به هؤلاء أهل الكتاب من الشر وسوء الأدب مع الرسول هو نتيجة اللعنة عليهم التي ضربت عليهم بسبب كفرهم فقد طردهم الرب تعالى عن بابه فلا تعطى الهداية إلا القليل النادر منهم.

وهناك نكتة أخرى في هذه الآية تستحقّ النظر إليها وهي أنّ هذه الشرور كلها كانت بمثابة السخر والهزء بالنبي ولكن القرآن اعتبرها بـ"الطعن في الدين" الذي يشير إلى أنّ النبي يكون صورة للدين ومظهرًا للشرعية فالطعن عليه كالطعن على الدين وستحدث

¹ ليراجع ما كتبنا عن هذه الكلمة ضمن الآية 104 لسورة البقرة، ولقد أشرنا إلى فوائد هذا الإصلاح المجلسي.

عن هذه النكتة في تفسير سورة الحديد إن شاء الله تعالى.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آوَوْا الْكَتَبَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٦٦﴾

طمس الشيء: محو آثاره وعلاماته وطمس الوجوه يعني: تسوية شخوص العين والأنف والوجه لأن الله وهب هذه القوى لسبب أعلى وأفضل ولكن إذا لم تستخدم لما وهبت له بل العكس من ذلك أنها ثبتت ما يهوي المرء في الضلال فلم تبق الحاجة إليها فتم تسويتها. ولنذكر هنا أن هؤلاء الناس سموا في سورة البقرة صماً وبكاً وعمياناً. معنى ذلك أنهم على الرغم من هذه القوى لا يقدرون على السمع والنطق والإبصار فهم يستحقون أن تحي هذه العلامات عنهم.

وفي تنكير لفظ الوجوه بلاغة تدل على الكراهية والتنفر عنها فقد لعن عليهم في الآية السالفة فالمراد من هذا التنكير أن هذه الوجوه الملعون عليها مكروهة لا يريد المتكلم أن يشير إليها فلم يقل "وجوههم" بل التفت عنهم وقال "وجوهاً" ولمثل هذا التنكير مثال في كلمة "قلوب" في الآية التالية: "أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْعَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا" ﴿٦٥﴾. وسنشير إلى بلاغتها في الموقع الذي جاءت فيه.

"فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا" تفصيل لما ذكر أعلاه، ومعنى ذلك: إذا لم يكن هناك فرق بين وجوههم وأكفهم، وأماميتها وخلفيتها، فلم لا نرد هذه الأمامية كالخلفية.

وقد تحدثنا بالتفصيل عن سبب اللعنة على أصحاب السبت وآثارها في آيتي سورة البقرة الـ 65-66.

هذه الآية ليست دعوة لليهود بل هي تهديد لهم فلم يأت ذكر الدعوة إلا كإتمام الحجة عليهم. والمعنى أن هذه آخر فرصة لتنبههم إذا أرادوا التنبه فإن تفتهم هذه الفرصة فلا تعود إليهم أبداً فالأفضل لهم أن يؤمنوا بهذا الكتاب الذي نزل مصدقاً لنبوءات

كتابهم وإلا فليعلموا أنه قد آن لهم أن تطمس وجوههم وأن يلعن عليهم كما لعن على أصحاب السبت بأن أصبحوا قردة خاسئين.

وللعنة درجات كما للرحمة درجات فاللعنة التي وعدوا بها هي التي استحقوها بسبب شرورهم فإن وجه الله لعنة أذى منها درجة فهذا يعني أنهم أهلوا قليلاً والإهمال الذي يعطى قومًا إذا لم يقدروه تقديرًا فيثبت سببًا للزيادة في عذابهم الأخروي.

وعندما أتلو هذه الآية أنحى أن تهديد طمس الوجوه الذي وجه إليهم يشبه فيه عملهم بجرائمهم فقد ذكر في الآية السالفة أنهم كانوا يستهزئون بالنبي لياً بالسنتهم وتغييراً بوجوههم وتحريفًا للكلمات عن مواقعها كأنهم اعتبروا هذا مهارة امتلكوا ناصيتها وعلى هذا فاستحقوا أن تطمس وجوههم فمن سلك سبيل الإعراض عن الحق يستحق أن يصرف وجهه عن الأمام.

"وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا" تدل على أنه لا ينبغي لأحد أن يظن أن طمس الوجوه وتسويتها صعب على الله فلن يأخذ أي أمره وقتًا طويلاً بل إنه يقول مجرد كُن فيكون.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٥١﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّلُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴿٥٣﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن نَّجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٤﴾

المراد بالجبوت أعمال السحر والشعبذة والرمل والفأل وما شابهها من الخرافات. وقراءة خطوط الكف (البصمة) أيضاً داخله فيها.

وقد فصلنا القول ضمن الآيات 286-288 لسورة البقرة أن اليهود وضعوا الكتاب وراء

ظهورهم حين انخطاطهم فوقعوا في مثلها ولقد بكى أنبيائهم على حالتهم السيئة هذه بكلمات شديدة، ونقلنا هناك ما احتجنا إليه من الشواهد وإن قننا بإعادتها لطال البحث.

وقد ناقشنا بالتفصيل كلمة الطاغوت ضمن تفسير الآية الـ 256 لسورة البقرة.

الدين أساس توحيد الإله وإنه ليس أحد العقائد فقط بل يقوم عليه الدين كله ويبقى. ومن يحافظ عليه من كل جانب يحافظ على دينه الحقيقي بالرغم من تورطه في أخطائه الصغيرة الأخرى. وبالعكس من ذلك فمن يخل بالتوحيد يهدم الدين الحقيقي فأعماله الأخرى التي تبدو أنها من الدين لا تعود بفائدة فلن يغفر الله الشرك ولكنه يغفر دون ذلك من الأخطاء إذا شاء ولمن شاء. وشرط "من شاء" دليل على ألا ينبغي لأحد أن يتجرأ على الأخطاء الأخرى لأن مغفرتها تبنى على مشيئة الله فلا يقدر أحد على أن يجبره على المغفرة ولا أن مشيئته تخلو من الحكمة، كما أن الجرأة على السيئات نوع من الشرك.

ذكرنا هذا المدخل لنبين أن اللعنة التي استحقها اليهود لأنهم هدموا الدين كونهم حاملي الكتاب واستبدلوه بالشرك الذي هو افتراء كبير على الله والذي لن يغفره الله، والسبب في اعتبار الشرك بالافتراء، كما أوضحناه في مكان آخر، أن الذين يشركون بالله يدعون لإثبات كافة أعمالهم الشركية جزءاً من الدين بأن هذه الأشياء أمر بها الله تعالى. والبديحي أن هذا اتهام بين على الله وإذا تَعَوَّدَتْ فِتْنَةٌ جُعِلَتْ شَاهِدَةً عَلَى دِينِ اللَّهِ عَلَى أَنْ تَفْتَرِيَ عَلَى اللَّهِ فَلَنْ تَسْتَحِقَّ إِلَّا اللَّعْنَةَ.

وبعد هذا المدخل ذكر ثلاثة أنواع من الشرك:

أولها: أنهم يعتبرون أنفسهم جماعة مختارة ومصطفاة ويرون أنهم ولد أولياء الله وأنهم بأنفسهم أولياء الله فلا يسألون يوم القيامة ولا يكون لهم عذاب عند الله، ومهما كانت أعمالهم لا يدخلون النار أولاً وثانياً إذا أدخلوها فلا يبقون فيها إلا لوقت قصير، ولقد جعلتهم كبريائهم هذه بعيدين عن مسؤوليات العمل والطاعة وأخرجوا أنفسهم من العبودية إلى نطاق الألوهية والحال أن الله لم يكتب لهم هذا السلطان في أي مكان من

كتابه فمن يُعطَ الولاية تُعطَ من الله، وربطها الله تعالى بالإيمان والعمل والبر والتقوى لا بالحسب والنسب فما يعمل المرء يره يوم القيامة فلا يظلمه الله فتيلاً وليس الله بظلام للعباد فعقيدة كبريائهم التي افتروها ليست إلّا من عند أنفسهم فإن يعزوها إلى الله فهي اقراء كاذب على الله وكفى بهذه دليلاً على كونهم مجرمين يستحقّون العذاب.

وثانيها: أنهم مع كونهم أهل الكتاب يؤمنون بالجيت والطاغوت ويقولون بالأعمال السفلية ويعملون عليها، ولنعلم عن الأعمال السفلية أنّ أغلبها تتعلّق بالقوى الشيطانية والأرواح الخبيثة وهي التي سمّيت بالطاغوت فمن يصرّ على هذه الأعمال يعتبر الأرواح الخبيثة مؤثرة بالذات وثانياً يرتكب أعمالاً تخالف الشريعة بل تشبه بالشرك لعقد علاقته بها واستعمالها لأهدافه وهي بالتالي تهدم مبنى الإيمان والعمل كليهما، ولينظر ما كتبناه ضمن هذا المبحث في تفسير سورة البقرة.

وثالثها: أنهم يعينون الكفّار والمشرّكين دون المؤمنين ويعتبرونهم أهدي من المؤمنين. مضى هذا المبحث في سورة البقرة وآل عمران.

لقد عميت اليهود في معارضة الإسلام إلى حدّ أنهم فضّلوا مشركي مكة على المسلمين ويحتالون على معارضتهم بتعاليم الإسلام ورخصه التي كانت تخالف بدعهم وتشديداتهم كمثل حالة الحدث والجنابة فقد رخص فيها الإسلام بالتيمم إذا لم يوجد الماء فجعلوها وسيلة للفتنة وبدأوا يقولون إنّ الدين الذي يسمح بالصلاة في حالة الجنابة بمجرد ضرب اليد على الأرض كيف يمكن له أن يكون سماوياً فما يسلكه المشركون أفضل منه وأطهر. ولنتذكّر هنا أنّ فقهاء اليهود قد شدّدوا بنسبة الطهارة بأنّ المرء يبقى كمن لا مساس له في حالة الجنابة. ودع الجنابة وحدها بل يبدو من الإنجيل أنّ فقهاء اليهود اعترضوا على أصحاب المسيح وأتباعه أنهم ربما يأكلون الطعام بدون غسل الأيدي وتنظيفها وعلى هذا اعتبرهم المسيح قبوراً مكلوسة فكما تكون القبور مكلوسة ولكنها تحوي في داخلها عظاماً بالية كذلك

هؤلاء هم بيض من الظاهر ولكنهم سود من الداخل لا دّخارهم السحت وأكلهم الباطل. وعين نفسية اليهود برزت ضدّ المسلمين فقد كانوا صابرين على المشركين ولكنهم ما رضوا بأن يتصبروا على المسلمين. والبديهي أنّ نصر الحق كما هو عين الحق كذلك نصر الشرك هو عين سلوكه.

ثم قال إنّ هؤلاء هم الذين لعنهم الله تعالى ومن يلعنه الله فلا مولى له ومن يلعنه الله فيقطع دابره والشجرة التي يقطع دابرها لا تخضر ولو تسقى سبعين مرة.

أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥١﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٢﴾ والمراد بالملك ملكوت الله وأما الناس فأريد بهم المسلمون في هذا الموضع.

والمعنى هل لهم نصيب في ملكوت الله فيعطونه لمن شاؤوا ويحرمونه من شاؤوا، ولعل على هذا النصيب يريدون أن يحرموا المسلمين فضل الله ونعمته؟ وإذا لم يكن كذلك، والمعلوم أنه ليس كذلك، فما الفائدة لكل ما يتفوهون هؤلاء فهل يمكن لهم أن يغلبوا قدر الله تعالى.

ثم كشف السرّ الحقيقي بأن كل ما يفعلونه ناتج عن الحسد البغيض الذي يخفونه ضد المسلمين فهم يموتون غضباً على أنّ النبوة التي كانت خاصة ببني إسرائيل كيف أخرجت عنهم وأعطيت لبني إسماعيل وهم لا يعلمون أنّ النبوة والشرعية من أفضال الله تعالى التي ينعم بها على من يشاء ويحرمها من يشاء فالحسد على فضل الله ثم البروز تحت وطأة ذلك الحسد عين القتال ضدّ الله سبحانه وتعالى. فإن قاموا ليقاتلوا الله فليقاتلوا فقد أعطينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة كما أنعمنا عليهم تلك الملكوت الكبرى أي ليكيدوا ما شاؤوا فإننا قد أنعمنا عليهم.

فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْآيَةَ وَإِذَا جَاءَ "فقد" في الجمل الإنشائية والشرطية فيكون

هناك حذف قبل تلك الجملة يبيّن ما يأتي بعدها فالمراد هنا هو أنهم إذا عارضوا هذا النبي حسداً لبني إسماعيل فيحسدوا ما شاؤوا فقد وهبنا لآل إبراهيم الكتاب والحكمة والملك العظيم كذلك.

ولو أنّ "عَالِ إِبْرَاهِيمَ" عامّة ولكن القرينة تدل على أنّ المراد منهم بنو إسماعيل لأنّ هذه الجملة كتنبيه لبني إسرائيل فلا يمكن لهم أن يكونوا منهم وإذا لم يكونوا منهم فلم يبق المراد منهم سوى بني إسماعيل ثم ذكر هنا إعطاء الكتاب والحكمة والملك وقد أعطيتهم هذه بعد أن لعن على بني إسرائيل فلن يمكن أن يكونوا ضمنهم. وكذا يثبت من التوراة أنّ اليهود نسبوا أنفسهم إلى إسحاق بدل نسبتهم إلى إبراهيم فقد جاء فيها: "ولا لأنهم من نسل إبراهيم هم جميعاً أولادُ بل بإسحاق يدعى لك نسل". وعلى العكس من ذلك أنّ العرب نسبوا أنفسهم إلى إبراهيم لأنّ إبراهيم أقام بها وبني بيت الله بها وأدى بها كافة المناسك.

فيبدو من هذا الأسلوب أنه لا ينبغي لبني إسرائيل أن يزعموا أنهم من آل إبراهيم بل أنّ هذا الشرف يتمتّع به بنو إسماعيل أيضاً والثاني أنه يشير إلى وعد الله الذي عقده مع إبراهيم والذي كان متعلّقاً بصراحة بإسماعيل وبنيه وقد جاء هذا الوعد في التوراة كما يلي:

"ونادى ملاكُ الربِّ إبراهيمَ ثانية من السماء وقال: بنفسي أقسمتُ، يقول الربُّ: بما أنك فعلت هذا وما بخلت بابنك وحيدك، فأباركك وأكثر نسلَك كنجوم السماء والرمل الذي على شاطئ البحر. ويرث نسلُك مدناً أعدائه، ويتبارك في نسلك جميعُ أمم الأرض لأنك سمعتَ لي".¹

فيتضح من بيان التوراة هذا أنّ الله قد عقد ميثاق البركة مع إبراهيم حينما نجح في ذبح وحيدهِ إسماعيل فليكونَ هذا الميثاق بإسماعيل وبنيه.

¹ التكوين، 12/15-18

يشمل هذا الميثاق ثلاثة أشياء:

1. أن الله يجعله أمة عظيمة.
 2. وأنه ينال الفتوح الكبرى وأنه يغلب الأعداء.
 3. وأن كافة أقوام الأرض تبارك به.
- وقد تمت هذه الوعود الثلاثة ببعثة محمد العربي صلى الله عليه وسلم فظهرت ببعثته أمة عظيمة غلبت الأعداء وبورك ببعثته العالم كله في الدين وفي الشريعة.
- وهذا بروز فعلي لذلك الوعد الذي أشير إليه في هذه الآية. ولو أن هذا الوعد لم يتم حينما نزلت هذه الآية ولكن قد فصل عن تمامه فعبّر عنه بأسلوب كأنه تمّ فعلاً. ولقد مضت في القرآن عدة أمثلة لهذا الأسلوب ونكتفي هنا بذكر مثال واحد. قال تعالى:

"وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَتَقَوَّمُ أَدْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَ لَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٥٠﴾ يَتَقَوَّمُ أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمَقْدَسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٥١﴾".

ألقى موسى هذا الخطاب على قومه حينما كانوا يدعونهم إلى الهجوم على الأرض المقدسة، والظاهر أنه لم يظهر شيء من هذه الأمور حين ذلك الوقت ولكن الله قد فصل عنها وأنه قد أخبر موسى بهذا الحكم فذكره موسى بحيث أن هذا الوعد قد تمّ.

وتخرج نكتة دقيقة من هذه الآية أن السلطان والخلافة نتائج للكتاب والسنة فحينما يعطي الله قوماً كتابه والحكمة وهم يقبلونه بإخلاص النية فيعطون الخلافة أيضاً. ولو أن هذه الحقيقة ذكرت في غير موضع من القرآن ولكنها ذكرت هنا خاصة فمن له ذوق سليم للغة العربية يعرف البلاغة المكنونة في تكرار "ءَاتَيْنَا" فقد كانت اليهود يحسدون المسلمين لأنهم كانوا عارفين بأنهم إذا نزل فيهم القرآن (كتاب الله) فتتبعه الحكومة ولذا قال: إننا لم نعظم الكتاب والحكمة فقط بل أعطيناهم الحكومة أيضاً

وهي على الرغم من أنوفكم.

فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ بِهِءِ وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٢﴾

هذه الآيات تتعلق ببني إسماعيل فقال إن جماعة منهم قد قبلت الكتاب والحكمة فآمنت به ولكن هناك جماعة أخرى بقيت قائمة على اعتراضها عنه فقال عن هذه الجماعة إنها إذا بقيت على كفرها فيدخلها الله في النار التي لا يخفف عنها العذاب وكلما نضجت جلودها ألبسوا جلوداً أخرى جديدة ليم تكرر عذابها الأليم. والله عزيز فلا غالب عليه ولا عاصم له وهو حكيم فلا يخلو أي أعماله من العدل والحكمة.

وأما الجماعة التي آمنت فقال عنها: إنها تدخل الجنة التي تخلص فيها مقاماً وتكون لها حور طيبات طاهرات. وشرحنا كافة أجزاء هذه الآية حين تفسير سورة البقرة.

ولقد أوضح القرآن حيث ذكر منته العليا هذه على بني إسماعيل أن هذه المنة ترجع إلى الإيمان والإسلام فهي ليست بسبب نسبهم وحسبهم فلا يعطى نصيباً من هذه المنة من بين بني إسماعيل إلا من يؤمن بهذا القرآن وصاحبه عليه أفضل الصلوات والتسليم وأما من لم يؤمن بهما فسيدخلون جهنم من إسرائيل كانوا أم من إسماعيل فقد جاء في سورة الجمعة:

"هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِ رُسُلًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كُنَّا مِنْ قَبْلُ لَنَفِي ضَالِّينَ مُبِينِينَ ﴿١﴾ وَآخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٣﴾".

وفي الجزء الأخير من الآية أشير إلى كفار قريش الذين لم ينضموا إلى من قبل هذه

النعمة فنجد في ألفاظها لمسة من التنبيه الذي لم يأت إلا ليعرف بنو إسماعيل أنّ الله أسبغ عليهم نعمة كبرى ولكن هذه النعمة ليست إلا لمن يقدرها فن لم يقدرها فلا نصيب لهم فيها على أساس كونهم من بني إسماعيل. وبما أنّ اليهود قد وقعوا في مثل هذا سوء الفهم فحُرموا فضلَ الله فنّه القرآن بأول وهلة بني إسماعيل بهذا الخطأ الفاحش.